

الطافات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي

د. مرزوق العمري
جامعة باتنة- الجزائر

مقدمة:

يجد الباحث في فكر الشيخ محمد الغزالي نفسه يبحث في فكر تكافأت مباحثه أهمية وتنوعت تنوع مجالات الحياة الإسلامية، وتعددت بتعدد تجارب صاحبه؛ فلا تكاد مسألة من المسائل المتصلة بالحياة الإسلامية المعاصرة إلا وتطرق إليها الشيخ محمد الغزالي إما داعيا إليها ومدافعا عنها، وإما ناقدا لها محذرا منها إن كانت مخالفة للإسلام.

ولذلك اكتست المواضيع التي كتب فيها الشيخ الغزالي أهمية خاصة، ولقيت كتبه مقروئية هائلة، كما كان لها الأثر الدعوي والسلوكي العظيم خلال عقد الثمانينيات خاصة في الجزائر، وذلك لطبيعة الخطاب الذي اعتمده الشيخ الغزالي والذي وصل من خلاله إلى قارئه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لطبيعة

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزروق العمري

المواضيع التي كان يناقشها؛ فبالإضافة إلى ارتباطها بالواقع الإسلامي ويوميات الفرد المسلم نجد أنها مرتبطة بالبعد الحضاري العام للأمة أيضا.

ولعل موضوع الطاقات الإسلامية يأتي في صدارة هذه المواضيع، فهذه الطاقات غدت معطلة فحرمت هي من إثبات وجودها، وحرمت الأمة من الاستفادة من هذه الطاقات التي وهبها الله، والنتيجة خسارة كبيرة على المستوى الحضاري للأمة. ولذلك لقي هذا الموضوع عند الشيخ محمد الغزالي عناية خاصة وقد أثمر جهده في ذلك كتابا قيما هو كتاب "الإسلام والطاقات المعطلة" الذي يمكن اعتباره أن صاحبه قدم من خلاله رؤية إسلامية في مجال التنمية الاجتماعية واستثمار الموارد البشرية.

بناء على ما تقدم هناك عدة مبررات تدفع إلى البحث في هذا الموضوع عند الشيخ محمد الغزالي وهي:

1- إن هذا الموضوع على اتصال مباشر بالحياة اليومية للمسلمين، فهم يشهدون طاقات الأمة التي وهبها الله، وكيف أن هذه الطاقات مبعدة عن مجالات التأثير الإيجابي، وكيف أنها تتآكل ذاتيا، وفي أحسن الأحوال قد تجد في الهجرة إلى خارج بلاد الإسلام متنفسا وفضاء تمارس فيه وجودها، وفي هذه الحال يكون المستفيد من هذه الطاقات الإسلامية هو غير المسلم.

2- إن هذا الموضوع - تفعيل الطاقات الإسلامية - شرط نهضوي؛ إذ أن الأمة في عملها النهضوي وفي محاربتها التخلف يجب أن تعتمد على طاقاتها الذاتية بالدرجة الأولى، إذا فالبحث في هذا الموضوع من مقتضيات سؤال النهضة.

3- من خلال هذه الدراسة نريد الوقوف عند الشيخ محمد الغزالي كنموذج من النماذج المتميزة التي عالجت هذا الموضوع من زاوية إسلامية.

انطلاقاً من هذه المبررات فالإشكالية التي تتمحور حولها هذه الدراسة هي نظرة الشيخ محمد الغزالي إلى الطاقات الإسلامية فكيف ينظر إليها؟ وما هي الشروط الكفيلة في نظره بتفعيل هذه الطاقات؟.

إن التعاطي مع هذه الإشكالية يقتضي اعتماد منهج مزدوج: منهج وصفي من جهة، تحليلي من جهة أخرى، كما يقتضي العودة بطبيعة الحال إلى كتب الشيخ محمد الغزالي التي لها صلة بهذا الموضوع بالدرجة الأولى، وذلك لاستخراج الشروط الكفيلة بتفعيل الطاقات الإسلامية، وهي أربعة شروط أساسية تنطوي على شروط جزئية وهي على النحو التالي:

أولاً: الإيمان بالإنسان

الإيمان بالإنسان في نظر الشيخ محمد الغزالي، شرط رئيس في تفعيل طاقة الإنسان؛ فإذا كان هذا الإنسان جاهل بما أودع الله فيه من ملكات تحقق له السيادة في الكون، أو بالغرائز والشهوات التي تمكنه من إعمارها، أو تعرّف عليها وعجز عن توظيفها، أو راح يوظفها توظيفاً لم ينضبط فيه بضوابط المنهج الإلهي، فإنه في هذه الحالات لن يغير شيئاً، ولن تكون له الاستفادة من امتلاك هذه الملكات، وساعتها يصبح هذا الإنسان ضد نفسه، وهذا ما اعتبره الشيخ الغزالي كفر بالإنسان وذهب إلى أنه أحد العوامل التي عطلت الطاقات الإسلامية.

ولذلك إذا أريد لهذه الطاقات الإسلامية أن تنطلق فلا بد من الإيمان بالإنسان في مستوياته المختلفة: في عقله، في غرائزه، وفي إحلاله المكانة التي ارتضاها له الوحي وهي استخلاف الله في أرضه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة/30). ودعوة الشيخ الغزالي إلى ضرورة الإيمان بالإنسان، دعوة انطلق فيها من الواقع الإسلامي الذي يحتضن صورة شوهاء للطاقات التي بثها الله في الكيان الإنساني وبقي التصور

الطائفة الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزوف العمري
الإسلامي حاملاً لمثل هذه الصورة المشوهة، حتى الظرف الذي حدثنا فيه الشيخ
الغزالي عنه حينما قال: «إن المتدين المنحرف يسيء تصور الملكات والشهوات
الإنسانية وينظر إليها نظرة ازدراء، وقد ينحصر تقويمه للإنسان في أنه تخلق من
نطفة قدرة، وينتهي إلى جيفة مذرة، وهو بينهما حامل بول و عذرة»⁽¹⁾.

إذا كانت هذه إحدى الأوصاف التي تشكل لنا واقع فهم معين للإنسان،
فكيف بالإنسان الذي هذه حقيقته أن يكشف ذاته؟، وإن اكتشفها فلا يجد غير
الأوصاف التي حددها هذا الحكم، وتضمنتها هذه المقولة، لا شك أنه ساعته
يعتبر نفسه نوعاً من الأنواع داخل الجنس الحيواني لا غير.

ولذلك نجد الشيخ الغزالي يعني على هذا الفهم، ويرفض هذا الوصف،
ويؤكد أن الإنسان صار بنفخ الروح فيه خلقاً آخر «خلقاً مكرماً بما أودع في بنائه
المعنوي من خصائص وأسرار، خلقاً إذا ما بلغ نماءه الصحيح، كما تنمو الشجرة
من بذرتها السوية، فاق الملائكة وخلق في الملاء الأعلى»⁽²⁾.

ومن هذا المنطق - التفوق على الملائكة - وهو منطلق قرآني ورد في
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (الأعراف/11). يمضي الشيخ محمد
الغزالي في رفضه للفهم السابق الذي قد يكون ورد بحسن نية أو بسوء نية،
ويحذر من مغبة التمادي في الأخذ به، أو العمل على توريثه، أو الاعتقاد بأنه من
الدين، وما هو من الدين؛ لأنه يغمط الإنسان حقه، ويخالف الوحي الذي فضل
الإنسان تفضيلاً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾. (الإسراء/70).

والشيخ الغزالي في رفضه لهذه الأفكار والفهوم ليس لأنها مجرد فهوم
بل لأنها ترجمت في أعمال، وروج لها على أنها من مظاهر الإسلام، ويقدم لنا
أمثلة على ذلك على النحو الذي يورده ابن عجيبة في شرحه على حكم ابن

الطافات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزوف العمري
عطاء الله السكندري، من أن أحد المتصوفة كان يمشي في طريق مليء بالأوحال
واستطاعت أقدام المارة أن تخط بجنبه طريقا ييسا، ولما كان هذا الصوفي يمشي
في هذا الممر اليابس وجد كلبا يريد اجتياز الدرب، فتنحى عن هذا الطريق
اليابس وفسحه للكلب، وغاص هو بقدميه في الأوحال⁽³⁾.

يورد الشيخ الغزالي هذا المثال أو هذه الحادثة، التي كان أصحابها
يوردونها في مجال حديثهم عن حرمة الترفع عن الحيوان، أو الالتزام بالتواضع
كخلق إسلامي رفيع، فهذا السلوك في نظر الشيخ الغزالي أدى بصاحبه إلى
الوقوع في المحذور. ولم يقم بفعل من أفعال الخير أبدا فقال بأن هذا تكبر لا
تواضع؛ لأن التواضع الحقيقي، لا يخالطه إحساس بالتنازل⁽⁴⁾.

مثل هذا السلوك، ومثل الفكرة التي آمن بها فاعله ففعل ما فعل، أدت إلى
احتقار الإنسان والتشكيك في قدراته، وعدم وعيه بسيادته في الكون، وهو الأمر
الذي كانت له نتائج ضارة بالإنسان المسلم وبالدين وبالحياة، ثم كانت له تبعات
ثقيلة على التاريخ الإسلامي، لا تزال تجلياتها تؤكد حجم ثقل هذه التبعات التي
أضرت بالإسلام والمسلمين. وقد أشار الشيخ الغزالي إلى هذا حينما قال: «لم
نجن من هذا الأسلوب في غرسها - فضيلة التواضع - إلا خلق جيل موطن
الظهر لكل معتد، وتكوين أناس يحتقرون أنفسهم من الصميم، ومن ثم لا
يصلحون لعمل عظيم»⁽⁵⁾.

ولا شك أن الدعوة إلى الله عمل عظيم، وأن عمارة الأرض عمل عظيم،
وأن استخلاف الله في أرضه أمر عظيم، وأن الشهود الحضاري الذي خص الله به
أمة محمد عليه الصلاة والسلام عمل عظيم، وأناى للإنسان الذي لا يعرف نفسه،
أو عرفها واحتقرها أن ينجز عملا من هذه الأعمال العظيمة؟ أو يكون من
الشهداء على الناس يوم القيامة؟

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزروق العمري
وعلى هذا الأساس الذي حددت فيه مهام المسلم نجد الشيخ الغزالي
يبين لنا ما أراده الإسلام من الإنسان، والمسلم على وجه الخصوص في أسلوب
تتكافأ فيه روحانية الإسلام وماديته.

فعن مادية الإسلام نجده يتحدث بما يؤكد أن الإسلام ينظر إلى الإنسان
على أنه كائن ركبت فيه غرائز هي سر بقاء نوعه، وسر اجتهاده في التشييد،
واتساعه في العمران واطراد مسيره، وحماية الحياة. يقول الشيخ الغزالي: «إن
الحياة على ظهر الأرض لا تتصل مواكبها، ولا يطرد نشاطها، ولا يرتفع مستواها
وتزدهر حضارتها إلا بوقود من هذه الشهوات المتقدمة»⁽⁶⁾. وأن الإسلام لم يلغ
هذه الغرائز؛ لأنها بعض الإنسان والقضاء عليها قضاء على الإنسان، بل وضع لها
ضوابط تضبطها وتوجهها إلى أهدافها، وهذه الضوابط والقيود ليس الغرض منها
تعطيل وظائفها، بل لضمانها بإبعادها الشطط والغلط عنها.

ويسوق لنا الشيخ الغزالي في هذا المجال عدة أمثلة من المحرمات التي
حرمها الشرع على الإنسان كبعض أنواع الأطعمة، وأنواع من الأخلاق السافلة
مبينا الحكمة منها، وكيف أنها فهمت فهما فاسدا ساهم في تعطيل الطاقات
الإسلامية وكرس التخلف في بلاد الإسلام. يقول الشيخ الغزالي: «عندما حرم
الإسلام أنواعا من الأطعمة فقصد من التحريم صيانة الجسم لا مصادرة الطبيعة
وتشريع الجوع، وعندما حرم أنواعا من الوقاع فقصد تهذيب النزوع الحيواني لا
إبادة الجنس الإنساني وإشاعة الرهبانية، وعندما حرم أنواعا من فنون الأثر
فليس ذلك لخلق إمعات ونكرات تزحم البر والبحر، وإنما لإيلاف الجماعة
البشرية أن تحي متعاونة متعارفة لا متدبرة متناكرة»⁽⁷⁾.

ويستفاد من هذا حسب الشيخ الغزالي أن الغرائز لم يلغها الإسلام بل
ضبطها ووجهها وحدد لها أطرها التي تباح فيها، وفي الاعتراف بها اعتراف
بالإنسان، وأن المحرمات التي حرمها الشرع ليست لاحتقار الإنسان أو منعه مما

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزوف العمري
يشتهي، بقدر ما هي محرمات روعيت فيها مصلحة الإنسان، والشرعية جاءت
لحماية مصالح الناس.

أما عن روحانية الإسلام فانطلاقاً منها عالج الشيخ الغزالي الكيان
الإنساني معالجة وافية مبرزاً الملكات العليا للإنسان ومؤكداً على ضرورة
الإيمان بالإنسان سيداً في هذا الكون؛ هذه السيادة التي يكاد الإيمان بها ينطفئ؛
إما لسوء فهم أو لقلة وعي، أو لعدم استقامة المنهج التربوي ليرتد الإنسان إلى
مستوى آخر، غير الذي ارتضاه له الوحي، وحتى تتحقق هذه الغاية القرآنية،
ويستمر السعي الإنساني في سبيلها، لابد من الإيمان بالملكات التي يتوفر عليها
الإنسان والتي محور نشاطها وفضاء توظيفها إثبات سيادة الإنسان في الكون،
وهذه السيادة تتكون في نظر الشيخ الغزالي من تجاوب الإنسان نفسه مع هذا
الكون الكبير⁽⁸⁾.

ويبني الشيخ الغزالي نظريته هذه على طبيعة النفس البشرية، التي تتوفر
على السلبية والإيجابية، أو على الخير والشر معاً. وهو الأمر الذي أشار إليه
القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾
(الشمس/7-8)، وكيف أنه يؤتى البشر ويتعرضون إلى سوء توجيه في أحد
الجوانب أو في كليهما معاً، وتثبت هنا مسؤولية المجتمع في مختلف مستوياته؛
لأنه مصدر هذا التوجيه أو ذاك ولذلك يقول الشيخ الغزالي: «والمجتمع الرشيد
هو الذي يهيئ للنفس مجال التنفيس عن هذه السيادة، ويتيح لها فرص القوة
والكمال»⁽⁹⁾.

وفي هذا المقام أيضاً نجد الشيخ الغزالي يدعو إلى تفعيل الطاقات
الإسلامية عن طريق الإيمان بالعقل الإنساني الذي يجب أن يجول في الكون
بغرض فهم نواميسه، واستنباط قوانينه، وتطبيقها في ميادين الحياة، ليتحقق
الوجود الإنساني، وتزدهر الحياة، وتستثمر الطاقات الإسلامية التي ما تزال

معطلة. ولذلك نجده يشيد بإنجازات الأوروبيين في ميادين الطبيعة، وفي تقدمهم الذي أحرزوه في العلوم الكونية، والذي أدى إلى ممارستهم لسيادتهم الإنسانية في الكون، وفي الوقت نفسه ينعي على المسلمين تخلفهم في هذا المجال فيقول: «أستطيع أن أقول بمنطق المفكر المسلم الأصيل أن الرجل الإنجليزي الذي اكتشف قوة البخار، والذي ترك عقله يسرح وراء غليان الماء، وضغط مادته المتحولة من سائل إلى غاز.. هذا المفكر كان أقرب إلى فطرة الإسلام من علمائه الذين تساءلوا: هل صفات الله عين ذاته. أم غير ذاته؟ أم لا عين ولا غير؟»⁽¹⁰⁾.

من خلال هذا نجد الشيخ الغزالي يعتبر التدبر في الكون أحد شروط إثبات سيادة الإنسان فيه؛ لأن ذلك لم يكن لولا الإيمان بالإنسان وبملكته العليا (= العقل) التي مكنته من اكتشاف قوانينه، ولذلك يرى الشيخ الغزالي أن المجال الطبيعي لملكات الإنسان العليا هو البحث في هذا الكون و: «كل ميدان افتتح للمجالات الغيبية كان تبديدا آثما لطاقاتنا العقلية، وكل عائق اصطنع لمنع العقل الإنساني من التجوال في الآفاق و الائتناس بمجالي القدرة العليا في الأرض والسماء، فهو عائق افتعله الجهل أو الضلال والإسلام بريء منه»⁽¹¹⁾.

أما الشرط الثاني الذي يراه الشيخ الغزالي ضروريا لتحقيق هذه السيادة التي للإنسان في حقيقته أهل لها، فهي السياحة بالبدن، باعتبار الكون كله فضاء لنشاطه والأرض مسجد له، مستندا في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاي فَاعْبُدُونِي﴾ (العنكبوت/56). ويعتبر الشيخ الغزالي تخلي المسلمين في العصر الحاضر عن هذا الأمر يعود إلى جهلهم بما حثهم عليه القرآن الكريم في هذا المجال. يقول الشيخ الغزالي: «ولو أن الصالحين من المسلمين عرفوا منطق كتابهم في تقويم الإنسان وتقرير حظوظهم من السيادة المادية والأدبية لأنساحوا في أنحاء المشرق والمغرب ينظرون ويكتشفون كما

الطافات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزروق العمري

فعل المجاهدون من رجالات القرن الأول، لكنهم حقروا أنفسهم وقعدوا في أوطانهم، وتضاءل العالم كله في أعينهم، فأصبح حركة عقيمة بين دورهم ومساجدهم، حركة يقطعها الموت وهي أشبه ما تكون به»⁽¹²⁾.

والمسلم لا يترك نفسه حتى يؤول أمره إلى الهوان وقد أراد الله له العزة فقد قال عز وجل: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون/8)، ولذلك يمضي الشيخ الغزالي ومن زاوية فقهية اعتبار: «الهجرة فريضة محتومة يوم تكون ابتعادا عن مواطن الضعف وأسبابه»⁽¹³⁾. «وأن الرجال حين تطرحهم النوى في الأقطار القصية، فإنما ذلك دليل علو همتهم وقوة عزيمتهم»⁽¹⁴⁾.

وقديما قال الإمام الشافعي:

ما في المقام لذي عقل وذو أدب من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمن تفارقه وانصب فإن لذيد العيش في النصب
إنني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب
فإن كانت هذه حقيقة الإنسان في الإسلام وأن هذه المكانة المرموقة هي مكانته الطبيعية، يمكن أن نتساءل هنا لماذا هذه المكانة مهددة؟ ولماذا وضعه غير الوضع الذي ارتضاه له الدين؟ نجد الشيخ الغزالي لا يهمل إمكانية هذه الاستفهامات التي من حق غير المسلمين طرحها، كما أنها من حق عامة المسلمين على علمائهم، ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن سبب ذلك هو الكفر بالإنسان الذي أدى إلى ذوبان الإنسان واختفائه، أو بقاءه هيكلا خربا لا حياة فيه، ويعتبر الشيخ الغزالي أن التدين الفاسد أبرز العوامل التي كرس هذا الوضع، واعتبر أن هذا التدين الفاسد: «يحاول باسم الإسلام الحيلولة بين الإنسان وفطرته، ويصادر باسم الإخلاص والتقوى خصائص الطبيعة»⁽¹⁵⁾.

ثانيا: إصلاح عاطفة الدين.

احتضان الإنسان المسلم بين جنبه عاطفة دينية أمر ضروري؛ فبهذه العاطفة يقيم شعائر دينية، وبحرارته يدافع عنه ويدعو إليه، فيسيئه ما يسيء الإسلام، ويفرحه ما يخدم الإسلام، وقد تأخذ هذه العاطفة شكل الإخلاص الذي هو شرط من شروط قبول الأعمال عند الله عز وجل، ومادامت كذلك ينبغي أن تكون هذه العاطفة صحيحة مسددة، قائمة على ما بينه الشرع من الصور التي تكون عليها ومن ذلك موافقتها للفطرة الإنسانية.

و شرط موافقتها للفطرة الإنسانية هو الأمر الذي غاب عن فهم المسلمين خاصة في القرنين الأخيرين، وبذلك اعتراها فساد، فتحوّلت بفساده إلى عامل من عوامل التخلف الذي شاب الحياة الإسلامية فتعطلت طاقات أبنائها، وحرمت الأمة من الانتفاع مما وهبها الله.

وقبل أن يحدد لنا الشيخ محمد الغزالي أدوات هذا الإصلاح يشخص لنا مظاهر الفساد التي اعترت عاطفة الدين لدى المسلمين، وكيف ساهمت في تخلفهم، وجهده في هذا المجال كان كبيرا، ربما لأن الفساد الذي مورس كان باسم الإسلام والإسلام منه بريء، ولذلك نجد كتابات الشيخ الغزالي حافلة بالدفاع عن الإسلام، وكيف أن هذه المظاهر التي تنسب إليه هو منها بريء، ويخاطب المسلمين أن يقدموا الإسلام إلى غيرهم كما هو، لا كما في سلوكياتهم. يقول الشيخ الغزالي: «إن ديننا مجهول عند الكثيرين، الناس يريدون وصفا للعقل الإسلامي، والضمير الإسلامي، والخلق الإسلامي، يريدون أن يعرفوا الأسرة كما بينها الإسلام، والدنيا كما ينشدها الإسلام وموازن العدالة كما ينصبها الإسلام»⁽¹⁶⁾.

فإذا كان الدين مجهولا لدى الكثيرين، وفي هذه المستويات المختلفة والمهمة من الحياة الإنسانية فإنه من أسباب ذلك فساد عاطفة الدين لدى

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزروق العمري
المسلمين، التي تتجلى حسب الشيخ الغزالي في علاقة المسلمين بالحياة،
ونظرتهم إلى الكون، واهتمامهم بوسائل التقدم، أو بما هو تجل طبيعي للفطرة
السوية كالرغبة في المال والولد.

فنظرة المسلمين إلى الحياة نظرة سلبية كما يرى الشيخ الغزالي، اعتبروها
فضاء للإغراء يفسد علاقتهم بدينهم فزهدوا فيها، واعتبروا الدخول في معامعها
يبعدهم عن الله، وتحولت عاطفتهم هذه تجاه دينهم إلى قيد منعهم من الانطلاق
لتحطيم عوامل التخلف، وتحقيق مركزية منها يدعون إلى الله ويجتهدون في
خدمة دينه، وصارت الشعوب الإسلامية حقيقة بالوصف الذي يذكره الشيخ
الغزالي: «إننا شعوب مستهلكة لا منتجة وأنا نأخذ أكثر مما نعطي... ويستحيل
أن تنجح رسالة كبرى يوم يكون حملتها في هذا المستوى، إن امتلاك الحياة
الدنيا عن قدرة وخبرة هو السبيل الأوحى لنصرة المبادئ والمذاهب»⁽¹⁷⁾.
وامتلاك الحياة عن قدرة وخبرة أمر مفقود في حياة المسلمين وواقعهم، فإذا
كانت الخبرة هي العلم الذي يحصلونه نتيجة اجتهادهم في فهم الكون، ومحاولة
اكتشاف قوانينه، والانتفاع بها في يومياتهم، فإن هذه الخبرة تنعدم أو وجهت
وجهة أخرى غير التي تبرز الطاقات الإسلامية التي تحتاجها الحياة الإسلامية
المعاصرة.

ومن صور التوجيه الفاسد لهذه الخبرة، التي كان يعتقد أنها أساس عاطفة
التدين، وإبقاء الإنسان موصولاً بالحقيقة ما قاله أحد المتصوفة:
فاخلع نعال الكون كي تراه وغض طرف القلب عن سواه
يقول الشيخ الغزالي مبيناً مكن الخطأ الذي هو حكمة عند قائلة وعند
أتباعه يقول: «ووجه الخطأ في هذا الكلام، يظهر في عبارات: الكون المخلوع،
والوجود المتروك، والأغيار الممحوة»⁽¹⁸⁾.

وفي قضاء الفقه أيضا يتجلى فساد توجيه الخبرة الإسلامية وفي هذا يذكر الشيخ الغزالي سؤال تضمنه التراث الإسلامي طرح على أحد المتصوفة عن حكم من سها في صلاته؟ فرد على السائل: عندنا أم عندكم؟ فاستغرب السائل، ثم أجابه المفتي عندهم سجدتان وعندما يضرب مائة سوط، و يطاف به في الأسواق، ويقال هذا جزاء عبد أساء في حضرة سيده»⁽¹⁹⁾.

أما القدرة التي تمتلك بها الحياة أيضا فمفقودة هي الأخرى، والتي تتمظهر في التطور في مختلف الميادين، وإن كانت تختزل في الثروة، وفي الولد، وهذه القدرة أيضا من الأمور التي شوهت إزاءها العاطفة الإسلامية.

ثم يمضي الشيخ الغزالي في تشخيص النتائج المترتبة عن الخبرة الإسلامية الفاسدة في حقيقتها أو الفاسدة في توجيهها، فمن هذه النتائج تضيق دائرة المباح واعتباره حراما منكرا، فكان ذلك أن شل طاقات إسلامية هائلة دهرًا طويلا، على النحو الذي أفتى به المفتي في حكم الساهي في صلاته، ومثل النهي عن الاهتمام بعالم الشهادة، وتسخير المعارف للاهتمام بعالم الغيب وحده، وكأن المسلم لا صلة له بهذا العالم الذي يعيش فيه، وأمر باستخلاف الله فيه، والدعوة إلى الإسلام فيه.

وإن تعددت مظاهر هذا العجز، وكثرت القيود التي كبلت الطاقات الإسلامية، إلا أن الشيخ محمد الغزالي يحتمل التصوف الإسلامي في بعض جوانبه مسؤولية ذلك، عن طريق تحذيره من الاهتمام بالدنيا، أو بالاشتغال بمظاهرها، أو الحرص عليها، وما إلى ذلك مما عد عند المتصوفة شاغل من شواغل القلب عن الله، وهكذا ينظر الشيخ الغزالي إلى أن هذه العاطفة التي أشربت القلب المسلم عاطفة فاسدة، لأنها أظهرت الإسلام بغير وجهه الصحيح، وحرمت المباحات، وقيدت الفكر، والنتيجة انسحاب كلي من الحياة.

يقول الشيخ الغزالي: «انسحب المسلمون انسحابا عاما شائنا من آفاق الحياة، وسيطرت عليهم أفكار، فهموا أن الاستعلاء عن ترك الدنيا، وأن النجاح في الامتحان يكون بالفرار منه لا بالدخول فيه واجتياز مشقاته»⁽²⁰⁾. ومؤاخذه الشيخ الغزالي للصوفية لهذا السبب الذي أثمر هذا الانسحاب الإسلامي من مجالات الحياة، والذي أدى إلى انعدام المجابهة في سبيل الإسلام، وصارت قضايا الإسلام والمسلمين لا تجد من يدافع عنها، أو سقطت في يد محام فاشل لا يحسن الدفاع والمرافعة، تمكن بحسن نية، أو بعجزه عن إظهار الحق إثبات معاداة الإسلام للحياة مما أدى إلى عجز المسلمين عن التمكن في الأرض الذي أراده لهم دينهم، لذلك نجد الشيخ الغزالي يطلق حكما غاية في الشدة على هذا الفكر الذي تسبب في شل قوى المسلمين واثبت التهمة على الإسلام قائلا: «إذا كان الإلحاد يفرض سلطانه بالتمكين في الأرض، فإن انصرافك عن التمكن في الأرض فاحشة أشد من الزنا والزنا»⁽²¹⁾.

وهذا التمكن المأمور به شرعا، يتناسب مع فطرة الإنسان التي تقضي وتحث على فهم الكون لا على معاداته، وتحث على الخروج للحياة لا على الانزواء والغربة في الكون، وعلى امتلاك ما يمتلك منها طالما هو من سبيل مشروع، وعلى هذا الأساس يمكن أن تكون العاطفة الدينية عاطفة صحيحة، لذلك نجد الشيخ الغزالي ينكر على المتصوفة الذين خالفوا الأسلوب القرآني في بناء عاطفة إنسانية صحيحة، ينكر عليهم ذلك حينما كرهوا العالم الدنيوي للمسلم، ونفروا منه العاطفة الإسلامية والذوق المسلم،

يقول الشيخ الغزالي: «إن كراهية العالم الذي تحيا فيه للظفر بمحبة الله، طريقة في الدين لم يقل بها نبي ولم تجيء فيها شريعة»⁽²²⁾. وهو في مذهبه هذا يستدل بالقرآن الكريم مثل قوله تعالى: «مالك لا ترجون الله وقارا وقد خلکم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سنوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل

الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم لإخراجا
والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا» (نوح 13-20) ومثل
هذه الآيات القرآنية التي تدعوا إلى النظر في الكون، والاجتهاد في اكتشاف
أسراره وقوانينه كثيرة، ويوظفها الشيخ الغزالي ليستدل بها على أن الإسلام رعى
العاطفة الدينية رعاية تتماشى والفطرة البشرية، وهي السبيل الأمثل للوصول إلى
الله عز وجل، لا سبيل الانزواء والغربة الحياتية كما رأت المتصوفة وكم يجد
قارئ الشيخ الغزالي إشارات بمنجزات علماء الغرب الكونية وإثباته انسجامها مع
الإسلام. ففي هذا المجال نجده يقول: «لو أن المسلم كرس عمره لاستكشاف
المجهولات من قوى الكون كما فعل أتشتين مثلا لكان تأمله تسييحا، وانكباه
على عمله اعتكافا»⁽²³⁾.

أما إذا انسحب المسلم من مجال الحياة، بل إذا ناصبها العدا، فإنه لن
يتمتع بحياته الدنيا، ولم يؤد رسالته فيها تجاه دينه، أو تجاه نفسه أو تجاه
التاريخ؛ لأنه بمعاداته الحياة فسدت لديه سائر مقومات وأدوات العمل المطلوب
منه، من عاطفة صحيحة قوية يحترم على أساسها الحياة ويسعى في فهمها، ومن
فهم يبني عليه ممارساته ويقوي إيمانه، ومن ذوق يعينه على الترتيب والتنظيم
فيحقق سعادته وهي من الغايات، ويؤدي واجبه وهو من الغايات، ويفهم العالم
الذي يعيش فيه وهو من الغايات أيضا، وعلى ذلك يبني التدين النافع لصاحبه
المستقطب لغير أبنائه. أما إذا كان غير ذلك فإنه يتحول إلى مظهر تنفيري فقد كل
عناصره الجذابة وهنا نجد الشيخ الغزالي يحمل المسلمين مسؤولية ما يشيع في
الأرض من كفر وفساد فيقول: «إنني أعتقد أن انتشار الكفر في العالم يقع نصف
أوزاره على متدينين بغضوا الله إلى خلقه بسوء كلامهم أو سوء صنيعهم»⁽²⁴⁾.

ولا يهمل الشيخ الغزالي مظاهر القوة التي ينبغي أن تملأ الحياة الإسلامية
أيضا والتي تعد من مظاهر صحة العاطفة الدينية التي توافق الفطرة البشرية كحب

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزوف العمري
المال والولد مثلاً، لنجده ينكر التراكمية السلبية التي عرفها المجتمع الإسلامي
القاضية بتبغيض المال الذي حبه أمر أصيل في الطبع الإنساني ليؤكد أن الإسلام
لم يحرم المال والسعي في جمع الثروة بل حرم سبلاً معينة كان المال يرد منها
كسبيل الربا، وبذلك فالثروة مباحة طالما هي من سبلها المشروعة، ليبين لنا في
أسلوب متميز ضرورة اجتهاد المسلم في محاربة الفقر، وجمع الثروة من
مسالكها التي رسمها الشرع، ومن مواردها المباحة، لأن ذلك ما يلائم العاطفة
الإنسانية في الحياة، وهي غير منكرة في الدين، يقول الشيخ الغزالي: «أملك أكثر
مما يملك قارون من المال، وسيطر على أوسع مما بلغه سليمان من سلطان
واجعل ذلك في يدك لتدعم به الحق حين يحتاج الحق إلى دعم وتتركه لله في
ساعة فداء حين تحين المنية»⁽²⁵⁾.

وهكذا نجد الشيخ الغزالي يؤكد لنا أن فساد العاطفة الدينية أحد العوامل
التي ساهمت في تعطيل الطاقات الإسلامية، هذا الفساد الذي كان سببه قصور
التدين الذي عمل على ترسيخ هذه العاطفة ويرى الشيخ الغزالي أن النفس
الإنسانية في ظل التدين المعلول تعجز عن القيام بوظيفتها في الحياة، بينما
تستطيع القيام بهذه الوظيفة نفس ليس لها من التدين إلا ما جبلت عليه من طباع
وأفكار⁽²⁶⁾.

ثالثاً: العدالة.

الحكم العادل فضاء يتيح لمختلف الطاقات أن تتنافس فلا يخنقها، ويتيح
لها أن تتحرك فلا يقيدتها، ويتيح لها أن تعمل وتباشر تصرفاتها فلا يحجر عليها،
ولذلك يؤكد لنا التاريخ أن الأمم لم تتمكن من اكتشاف عبقرية أبنائها إلا في
أجواء الحرية وحماية الحقوق، كما يؤكد لنا أيضاً أن تلك العبقرية ظلت حبيسة
عقول وإرادات أصحابها وماتت معهم في أجواء الطغيان والاستبداد. وقد
التفت الشيخ محمد الغزالي إلى هذه المسألة فحكم بأن الحكم الاستبدادي يشل

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزروق العمري
القوى ويصفه قائلا: « الحكم الاستبدادي تهديم للدين، وتخريب للعالم، فهو
بلاء يصيب الإيمان والعمران جميعا، وهو دخان مشؤوم الظل يخنق الأرواح
والأجسام في نطقة حيث امتد، فلا سوق الفضائل والآداب تنشط ولا سوق
الزراعة والصناعة تروج»⁽²⁷⁾.

وقد اختنقت الكثير من الأرواح الإسلامية، وشلت الكثير من الطاقات
الإسلامية في الأجواء الاستبدادية، لذلك فالحرية شرط جوهري من شروط
تفعيل الطاقات الإسلامية عند الشيخ محمد الغزالي الذي ينطلق في استدلاله
على هذا الأمر من طبيعة الإنسان نفسه وكيف أنه يعجز عن القيام بأي عمل في
غياب حكم عادل يضمن له الأمن والطمأنينة ولا يحول بينه وبين الهدف الذي
يرجوه طالما هو في سبيل الحق ولم يخطئ الطريق فيحيي الأمل في نفسه،
وينطلق كاشفا عن عبقريته.

هذه الضمانات الطبيعية لا يمكن أن يحققها إلا الحكم العادل وهو سر
تقدم الشعوب الغربية في مختلف الميادين وامتلاكها في طرق وجيزة الكثير من
العقول المفكرة والمبدعة التي نقلت بلادها نقلة حضارية نوعية في ظرف
تاريخي وجيز.

الشيخ الغزالي يقف عند هذه المسألة - مقارنة الإسلام بالغرب - ليؤكد
تكافؤ الأمم في الملكات، وتكافؤ رغبة أبنائها في الحياة؛ لأن ذلك من الأمور
التي تعود إلى الطبيعة البشرية. ومما أودعه الله فيها فلا يستقيم أن يقال فلان
مبدع لأنه غربي وفلان متخلف لأنه مسلم، بل ذلك مرده أمر آخر هو القيادة
العادلة التي أباحت للطاقات أن تبرز هناك وخنقتها حتى ماتت هنا.

يقول الشيخ الغزالي: «وفي رأي أن حظوظ الأمم من الكفاءات متساوية
أو متقاربة، وأن أولى النباهة والمقدرة عند أية دولة في الغرب لا يزيدون كثيرا
عن أمثالهم في أي شعب شرقي... كل ما هنالك أن قياد الجماهير في أوروبا

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزوف العمري
المال والولد مثلاً، لنجده ينكر التراكمية السلبية التي عرفها المجتمع الإسلامي
القاضية بتبغيض المال الذي حبه أمر أصيل في الطبع الإنساني ليؤكد أن الإسلام
لم يحرم المال والسعي في جمع الثروة بل حرم سبلاً معينة كان المال يرد منها
كسبيل الربا، وبذلك فالثروة مباحة طالما هي من سبلها المشروعة، لبيان لنا في
أسلوب متميز ضرورة اجتهاد المسلم في محاربة الفقر، وجمع الثروة من
مسالكها التي رسمها الشرع، ومن مواردها المباحة، لأن ذلك ما يلائم العاطفة
الإنسانية في الحياة، وهي غير منكرة في الدين، يقول الشيخ الغزالي: «أملك أكثر
مما يملك قارون من المال، وسيطر على أوسع مما بلغه سليمان من سلطان
واجعل ذلك في يدك لتدعم به الحق حين يحتاج الحق إلى دعم وتتركه لله في
ساعة فداء حين تحين المنية»⁽²⁵⁾.

وهكذا نجد الشيخ الغزالي يؤكد لنا أن فساد العاطفة الدينية أحد العوامل
التي ساهمت في تعطيل الطاقات الإسلامية، هذا الفساد الذي كان سببه قصور
التدين الذي عمل على ترسيخ هذه العاطفة ويرى الشيخ الغزالي أن النفس
الإنسانية في ظل التدين المعلول تعجز عن القيام بوظيفتها في الحياة، بينما
تستطيع القيام بهذه الوظيفة نفس ليس لها من التدين إلا ما جبلت عليه من طباع
وأفكار⁽²⁶⁾.

ثالثاً: العدالة.

الحكم العادل فضاء يتيح لمختلف الطاقات أن تتنافس فلا يخنقها، ويتيح
لها أن تتحرك فلا يقيدتها، ويتيح لها أن تعمل وتباشر تصرفاتها فلا يحجر عليها،
ولذلك يؤكد لنا التاريخ أن الأمم لم تتمكن من اكتشاف عبقرية أبنائها إلا في
أجواء الحرية وحماية الحقوق، كما يؤكد لنا أيضاً أن تلك العبقرية ظلت حبيسة
عقول وإرادات أصحابها وماتت معهم في أجواء الطغيان والاستبداد. وقد
التفت الشيخ محمد الغزالي إلى هذه المسألة فحكم بأن الحكم الاستبدادي يشل

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مرزوق العمري
القوى ويصفه قائلا: « الحكم الاستبدادي تهدم للدين، وتخریب للدين، فهو
بلاء يصيب الإيمان والعمران جميعا، وهو دخان مشؤوم الظل يخنق الأرواح
والأجسام في نطقة حيث امتد، فلا سوق الفضائل والآداب تنشط ولا سوق
الزراعة والصناعة تروج»⁽²⁷⁾.

وقد اختنقت الكثير من الأرواح الإسلامية، وشلت الكثير من الطاقات
الإسلامية في الأجواء الاستبدادية، لذلك فالحرية شرط جوهري من شروط
تفعيل الطاقات الإسلامية عند الشيخ محمد الغزالي الذي ينطلق في استدلاله
على هذا الأمر من طبيعة الإنسان نفسه وكيف أنه يعجز عن القيام بأي عمل في
غياب حكم عادل يضمن له الأمن والطمأنينة ولا يحول بينه وبين الهدف الذي
يرجوه طالما هو في سبيل الحق ولم يخطئ الطريق فيحي الأمل في نفسه،
وينطلق كاشفا عن عبقريته.

هذه الضمانات الطبيعية لا يمكن أن يحققها إلا الحكم العادل وهو سر
تقدم الشعوب الغربية في مختلف الميادين وامتلاكها في طرق وجيزة الكثير من
العقول المفكرة والمبدعة التي نقلت بلادها نقلة حضارية نوعية في ظرف
تاريخي وجيز.

الشيخ الغزالي يقف عند هذه المسألة - مقارنة الإسلام بالغرب - ليؤكد
تكافؤ الأمم في الملكات، وتكافؤ رغبة أبنائها في الحياة؛ لأن ذلك من الأمور
التي تعود إلى الطبيعة البشرية. ومما أودعه الله فيها فلا يستقيم أن يقال فلان
مبدع لأنه غربي وفلان متخلف لأنه مسلم، بل ذلك مرده أمر آخر هو القيادة
العادلة التي أباحت للطاقات أن تبرز هناك وخنقتها حتى ماتت هنا.

يقول الشيخ الغزالي: «وفي رأي أن حظوظ الأمم من الكفاءات متساوية
أو متقاربة، وأن أولى النباهة والمقدرة عند أية دولة في الغرب لا يزيدون كثيرا
عن أمثالهم في أي شعب شرقي... كل ما هنالك أن قياد الجماهير في أوروبا

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزروق العمري
وأمرىكا أخذ طريقه الطبيعي إلى أيدي الأذكاء الأكفاء... أما في الشرق الإسلامي
مثلا فإن القياد - بأسباب مفتعلة - ضل طريقة عن أصحابه الأحقاء به»⁽²⁸⁾.

وهذا المآل الذي آلت إليه بلاد الإسلام في مجال الحكم والسياسة هو
الذي فعل بطاقتها ما فعل فمرة نجده يحتقرها و يستهين بها فلا يرها حق
الرعاية، ولا يتيح لها الفرص التي تفصح فيها عن نفسها، وثبت وجودها و
جدارتها وقدرتها على الإسهام في مجالات الحياة المختلفة التي من الطبيعي أن
تحتاج الأمم فيها طاقاتها الفاعلة.

وقد يكون هذا الاحتقار مبني على إهمال مردّه طبيعة المستبد الذي عادة
لا يؤمن إلا بنفسه، وقد يكون على وعي بقيمة الطاقات الحية، وقدرتها على
التأثير والتغيير، ومن ثم يخشى المستبد على ملكه، فيسعى في بذر الأشواك أمام
هذه الطاقات ويوظف سلطانه في إقصائها، فتبقى مهمشة معطلة.

ومن ثم إذا أريد لهذه الطاقات أن تتفجر، وأن تسير مسارها الصحيح فلا
بد لها من نظام حكم يضمن لها جو الحرية الذي لا يمكن أن تتفتح إلا فيه:
حرية القول وحرية الفعل معا.

حرية القول، والتي تتجلى في ممارسة نقدية للحكم الممارس عليها فتبين
معايبه وتقوم اعوجاجه وتسدي إليه بالنصيحة إن كان في حاجة إلى مستنصح،
ومجال النقد مجال إصلاحي واسع كما أنه ضرورة لا يستغني عنها نظام من
الأنظمة، وقد أدرك الشيخ الغزالي ضرورته حينما قال: «حاجة الأمم للنقد ستظل
ما بقي الإنسان عرضة للخطأ والإهمال، بل ستظل ما بقي الكلمة من البشر
يخشون الملام، ويخافون الحساب، ومادامت العصمة لا تعرف لكبير أو صغير
فيجب أن يترك باب النقد مفتوحا على مصراعيه»⁽²⁹⁾.

وإذا كان النقد على هذا القدر من الأهمية فأمر أخرى تكون مرهونة به
كإحسان الأعمال وإتقانها وضمن المصالح والحقوق، وتفادي التقصير في

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزروق العمري
الأمور، وهذا النقد هو الذي مكّن الغرب من تحقيق التطور الذي بلغه وكانت
إنجازاته في هذا المجال - ضمان الحريات - هي التي تجعلنا نستدل بهم، كما
استدل بهم الشيخ الغزالي إذ قال: «أما الحريات التي تقدسها الأمم الديمقراطية
فإنها مزقت الأغذية عن كل العامة، وجعلت الزعماء قبل الأذنان يفكرون طويلا
قبل إبرام حكم، أو إنفاق مال، أو إعلان حرب، أو ابتداء مشروع كبير»⁽³⁰⁾.

و كما يجب أن يضمن الحكم حرية القول وقبول النقد، يجب أيضا أن
يضمن حرية الفعل أيضا، التي هي إسهام في خدمة الأمة، وهي أساس يقيم عليه
الرجال، كما أنها أساس إتاحة فرص البروز للطاقات كي تكشف عن نفسها.
وتنطلق في خدمة الدين والدنيا معا.

والشيخ الغزالي حينما يشير إلى هذه الشروط التي تحتاجها الطاقات
الإسلامية كي تمارس وجودها يبرئ الإسلام مما لحق بالمسلمين وبكفاءتهم
فليس الإسلام من فعل بهم ذلك بل فعلوا ذلك بأنفسهم كما فعلت ذلك بهم
حكوماتهم وأنظمتهم التي هي دون حكومات العالم نزاهة وعدالة⁽³¹⁾.

كما أنه يحملهم المسؤولية أيضا على الوضع الذي آلو إليه وصاروا
يفتقدون إلى أهم حق طبيعي وهو حق الحرية، فيتكلم عن الإنسان العربي قائلا:
«ما أهون دمه وعرضه، وما أضيع حقه، لكنه هو الذي فعل بنفسه ذلك كله، إن
المنتحر لا يهتم بقتله، بل هو قاتل نفسه»⁽³²⁾.

والحرية التي يدعو الشيخ الغزالي إلى ضرورة تحصيلها، وافتكاكها من
مغتصبها ليست الحرية السلبية التي أتيح للمسلمين تقليد الغرب فيها، فأخذت
تقاليد صرفت الطاقات الإسلامية عن أدائها الرسالي، وجعلتها تهتم بالقشور لا
بلب الأشياء، بل تحولت إلى جهاز استقبال لجهاز إرسال مقره هناك، ودخلت
بذلك الأمة مرحلة الدعوة إلى التغريب الذي صار أحد مضامين الخطاب
التقدمي في البلاد الإسلامية في تاريخها الحديث والمعاصر.

وهكذا بهذه الإرادة الاستبدادية حوصرت الطاقات الإسلامية، وحيل بين الأمة وسبل المجد، والاهتمام بهذا الأمر كان قد أشار إليه قبل الشيخ الغزالي عبد الرحمن الكواكبي، حينها تكلم عن الاستبداد والمجد⁽³³⁾.

وحتى لا يحال بين الأمم وطريقها إلى المجد يشترط الشيخ الغزالي نوعا خاصا من الحرية، قال عنها: «الحرية التي يحتاج إليها الشرق الإسلامي تعني إزالة العوائق المفتعلة أمام الفطرة الإنسانية عندما تطلب حقوقها في الحياة الآمنة العادلة الكريمة، الحياة التي تتكافأ فيها الدماء وتتساوى الفرص. وتكفل الحقوق، وينتفي منها البغي، ويمهد فيها طريق التنافس والسبق أمام الطامحين والأقوياء، ويمهد طريق الاندثار والاستخفاء أمام التافهين والسفهاء، فلا يكون لهم جاه، ولا يقدس لهم حمى»⁽³⁴⁾.

وهذا النوع من الحرية مرهون بحكم عادل لذلك اعتبر الشيخ الغزالي الحكم العادل أحد شروط تفعيل الطاقات الإسلامية.

رابعا: الانتقائية الثقافية.

الثقافة التي يتلقاها الإنسان كالأطعمة التي يتناولها سواء بسواء، إذا كان الطعام كاملا متوازنا كان نمو الجسم نموا سويا، والأمر نفسه بالنسبة للثقافة والمعارف التي يتلقاها الإنسان، إذا كانت معلومات حية، فإنها تبعث الحياة في متلقيها، وإن كانت معلومات ميتة، فإنها لا تنتج إلا عقولا متحجرة وإرادات مشلولة.

والشلل الذي أصاب الطاقات الإسلامية كما يرى الشيخ الغزالي أحد أسبابه هذا النوع من الثقافة، يصور لنا الشيخ الغزالي هذه الوضعية قائلا: «المجتمع الإسلامي من أزمنة متطاولة ضللت أحكام خاطئة، واستولت عليه صور ذهنية وقلبية ما أنزل الله بها من سلطان فكم من أشياء درست على أنها

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزوف العمري

دين، فإذا محصتها وجدت أنها هراء، أو وجدت أنها اجتهدا محدودا لأحد الباحثين ليست له قداسة الدين، ولا حرمة الخروج عليه⁽³⁵⁾.

هذا الوصف طال الوضعية المعرفية للأمة الإسلامية في مختلف المستويات سواء في علاقتها بالوحي (قرآنا وسنة). أو في مجال الفقه والعقائد، وحتى في مجال العلوم المادية.

ففي علاقتهم بالقرآن الكريم يرى الشيخ الغزالي أنها علاقة موقوفة على التعبد بالألفاظ والتوقير المادي للتلاوة المجردة⁽³⁶⁾، مع الاعتقاد أنها الطريقة التي تبنى بها النفوس قرآنيا. أما السنة فأخذ الناس بها لا يميز في الكثير من الأحيان بين صحيحها وضعيفها، فكان الأخذ بتلك النصوص قيودا ثقالا في منع الأمة من الحركة، وشل نشاطها النفسي والفكري⁽³⁷⁾. كما ساهم الفقه في بعض أطواره في خلق هذا الجمود، أما العقائد فالشيخ الغزالي يرى أنها ساهمت في ذلك أيضا بما تضمنت من أدوات الفلسفة اليونانية، وبتحولها إلى مناقشات مذهبية، أما العلوم المادية فقد شغل عنها العقل المسلم على الرغم من أن النظر والتأمل والتفكير في الكون المادي هي مصادر اليقين التي لفتنا القرآن إليها⁽³⁸⁾. وقد كان الأخذ بهذا النموذج المعرفي سببا رئيسيا في تعطيل الطاقات الإسلامية كما يرى الشيخ الغزالي.

فطبيعة الصلة بين مسلمي اليوم والقرآن الكريم خلاف صلة السلف الصالح؛ فأولئك تخلل نور القرآن إلى نفوسهم فأقبلوا على فهمه وتدبره، فجعل منهم طاقات متفجرة بلغت الإسلام للعالمين، أما مسلمي اليوم الذين لم يلتفتوا إلى ما كان عليه السلف فصلتهم بالقرآن لا تغسل من نفوسهم درنا بله أن يغسلوا هم أدران الآخرين⁽³⁹⁾. وفي مجال السنة نشرت أحاديث كثيرة كان لها كبير الأثر في فساد تصور العامة لحقائق الدين والدنيا⁽⁴⁰⁾. أما الفقه فيرى الشيخ الغزالي أنه آل إلى حالة آذت المسلمين وشلت نماءهم ومكنت الغزو الثقافي

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مزروق العمري
من اجتياحه، و أوهت بالإسلام⁽⁴¹⁾. والأمر نفسه بالنسبة للعقائد فقد غدت
الجامعات والمدارس الإسلامية تخرج الآلاف من الطلبة الذين خلت أفئدتهم
من العقائد الدافعة، وهي في نظر الشيخ الغزالي أصفار لا وزن لها ولا خطر⁽⁴²⁾.
هكذا نجد كيف أن الثقافة الرديئة أحد العوامل التي ساهمت في تعطيل
الطاقات الإسلامية ولذلك يرى الشيخ الغزالي إذا أريد لهذه الطاقات أن يتم
تفعيلها لا بد من انتقائية ثقافية؛ هذه الانتقائية التي تقوم على عدة أمور هي:

أولاً: التمييز بين الوحي وغيره.

أي التمييز بين ما هو قرآن وسنة وبين اجتهاد المسلمين والفرق بين
الأمرين جلي، فالعمل بالوحي واجب في حين الاجتهاد ليس له نفس الصبغة
الإلزامية لذلك يقول الشيخ الغزالي: «حرام أن تحبس أمة ضخمة في تفكير رجل
واحد قد يخطئ وقد يصيب، وحرام أن توصف في محبسها هذا بأنها تلتزم
حدود الإسلام»⁽⁴³⁾.

ثانياً: اعتماد اليقين.

أي الأخذ به وترك الظن، وهذا الأمر أساسه القرآن الكريم قال تعالى:
﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ (الإسراء 36)، وقال عز وجل: ﴿وإن الظن لا
يغني من الحق شيئاً﴾ (النجم 28) وعلى هذا الأساس يشرح الشيخ الغزالي
ضرورة الأخذ باليقين وترك الظن، وأن يكون هذا الغذاء الروحي والعقلي للأمة
مستقيماً مع مناهج الاستدلال العلمي⁽⁴⁴⁾.

ثالثاً: تمحيص التراث الإسلامي.

التراث الإسلامي في نظر الشيخ الغزالي لا ينبغي أن يترك، كما لا ينبغي
أن يؤخذ دونما تمحيص، بل يجب أن يمحص عن طريق دراسة أئمة ومنتجيه
وذلك بإلغاء التعصب، حتى يتمكن من الاستفادة منهم جميعاً، فإذا كان التقليد
مبني على أساس من التمحيص كان تقليداً موقفاً.

رابعاً: الأخذ بالعلوم المادية:

وفي مجال العلوم المادية، يرى الشيخ الغزالي أنها صارت من الأمور التي لا غنى للمسلم عنها وأنها المجال الحقيقي الذي تفجر فيه الطاقات، وتكون خدمة الدين مرهونة بنوع المعلومات التي نملكها في مجال العلوم المادية، وبنوع الإنجازات المؤسسة على تلك المعلومات. يقول الشيخ الغزالي منكراً على المسلمين تخلفهم في مجال العلوم المادية ووجوب الأخذ بها: «لقد قصرنا في ميدان العلوم المادية تقصيراً شائناً ولو أن رجلاً أجنبياً قارن بين مرامي كتابنا وتصويره للأرض والسماء وما بينهما لوجد البون بين الأمدنين هو بعد المسافة بين الحق والخرافة، ومن أجل ذلك يجب أن نضاعف السير لتعويض ما فاتنا، وإدراك من سبقنا، فإن جهلنا بالحياة كان معصية لله، وإساءة لدينه»⁽⁴⁵⁾.

الخاتمة:

مما سبق يمكن القول أن الشيخ محمد الغزالي قد شخص أهم الأسباب التي عطلت الطاقات الإسلامية كما وضع الشروط الكفيلة بتفعيل هذه الطاقات لتأخذ مكانتها الطبيعية وتستفيد منها الأمة، ومن خلال هذه الدراسة يمكن إثبات النتائج التالية:

1. إن نظرة الشيخ محمد الغزالي لمسألة المسلمين وتعطيل طاقاتهم، نظرة جديرة بالدرس كنظرة إسلامية معاصرة، لما اتسمت به من موضوعية، وتشخيص حقيقي لعوامل التعطيل الأمر الذي مكنه من استنباط الشروط الكفيلة بتفعيل هذه الطاقات. كما تتجلى أهمية هذه النظرة أيضاً في كونها إجابة قدمها الشيخ محمد الغزالي على سؤال كبير، وهو سبب تخلف المسلمين، وهو السؤال الذي لا يجيب عنه كل الناس أو يتمكن من الإجابة عليه في كل زمان.

2. إن مسألة تعطيل الطاقات الإسلامية أمر لم يكن سببه الإسلام لأن الإسلام يفجر الطاقات ولا يخمدّها، والتاريخ شاهد على أن العرب لم يكونوا

الطاقات الإسلامية وشروط تفعيلها في نظر الشيخ محمد الغزالي..... د. مرزوق العمري
شيئاً لولا الإسلام وما ينسب إلى الإسلام ما هي إلا أباطيل لا أساس لها من
الصحة.

3 . الاعتناء بالعلوم المادية أمر لا غنى للمسلمين عنه لأنها غدت مجال
السباق ومقياس التحضر، والميدان الذي يمكن للعبقريات أن تبرز فيه كما أنه
مطلب إسلامي؛ فدعوة الإسلام المسلمين إلى النظر في الكون، وإلى الاهتمام
بالحياة وإلى اكتشافهم سنن الله في هذا العالم مما يعمق إيمانهم بالله ويكشف
لهم عن حقيقة هذه المعارف وكيف أنها لا يستغنى عنها.

4 . تعامل المسلم المعاصر مع تراثه الإسلامي أمر واجب ولكن مما هو
واجب أيضاً أن يقوم المسلم المعاصر بقراءة نقديه لتراثه ليعرف مواطن الصواب
من مواطن الخطأ ويعرف ما هو مرتبط ببيئته وما يمكن أن يوظف خارج بيئته،
وقبل ذلك لابد من التمييز بين الوحي وغيره، بين ما هو قرآن أو سنة وبين ما
هو اجتهاد لرجل من أهل العلم من المسلمين قد يصيب وقد يخطئ كما قال
الشيخ الغزالي.

5 . المجال السياسي مجال إصلاح هام، وله دور كبير في تفجير طاقات
الأمة أو تعطيلها، وحبس السنة أصحابها داخل أفواههم، ولذلك فمسؤولية
السياسة في هذا المجال مسؤولية عظيمة أمام الله وأمام التاريخ.
فإذا روعيت هذه الأمور لاشك أن الحواجز ترفع من أمام الطاقات التي
تتوفر عليها الأمة لتأخذ مكانتها الطبيعية.

الهوامش:

- 1- الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، نشر الزيتونة للإعلام والنشر، باتنة، الجزائر، ص 37
- 2- المرجع نفسه والصفحة.
- 3- المرجع نفسه، ص 38.
- 4- المرجع نفسه والصفحة.
- 5- المرجع نفسه والصفحة.
- 6- المرجع نفسه والصفحة.
- 7- المرجع نفسه، ص 40.
- 8- المرجع نفسه والصفحة.
- 9- المرجع نفسه والصفحة.
- 10- المرجع نفسه، ص 42.
- 11- المرجع نفسه والصفحة.
- 12- المرجع نفسه، ص 43.
- 13- المرجع نفسه، ص 45.
- 14- المرجع نفسه، ص 44.
- 15- المرجع نفسه، ص 47.
- 16- الشيخ محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، سلسلة كتاب الأمة، (1402هـ)، ص 61.
- 17- الشيخ محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الصديقية للنشر، الجزائر، ط 1 (1989)، ص 113.
- 18- الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، ص 33.
- 19- المرجع نفسه، ص 32/33.

- 20- الشيخ محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، 113.
- 21- المرجع نفسه، ص 114.
- 22- الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، ص 34. --
- 23- المرجع نفسه، ص 35.
- 24- الشيخ محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص 61.
- 25- المرجع نفسه، ص 14.
- 26- الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، ص 36.
- 27- المرجع نفسه، ص 50.
- 28- المرجع نفسه، ص 54.
- 29- المرجع نفسه، ص 56.
- 30- المرجع نفسه، ص 57.
- 31- الشيخ محمد الغزالي: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 107.
- 32- الشيخ محمد الغزالي: الحق المر، دار الشهاب باتنة، الجزائر (1987)، ص 128.
- 33- أنظر الفصل الخاص بالاستبداد والمجد ضمن كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.
- 34- الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، ص 60.
- 35- المرجع نفسه، ص 61.
- 36- المرجع نفسه، ص 65.
- 37- المرجع نفسه، ص 70.
- 38- المرجع نفسه، ص 95.
- 39- المرجع نفسه، ص 67.

- [illegible]